مظاهر التفكير النقدي في مقولة التلقي لدى نقاد المغرب الإسلامي

Aspects of critical thinking in the category of reception among critics of the Islamic Maghreb

د/ صليحة بردي*
جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)
salihaberdi@gmail.com

تاريخ الوصول: 2021/10/25 تاريخ القبول: 2021/10/31 تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص:

اهتم النقاد المغاربة قديما بنقد المنجز الشعري نظرا لما عرف به العصر من تصدر لهذا النوع الأدبي؛ وإذا كانت المعرفة النقدية التراثية معروفة بعدم الاستقلالية في طرحها المعرفي، فإنها قد حفلت بالتأليف في مختلف القضايا؛ بغية انتهاج سبيل لإيضاح المسائل، والعناية بالترتيب السليم للمقولات المطروحة للدرس، والعمل على بعثها من جديد، فظهرت عدة مدونات نقدية وفلسفية ألفت في النقد المغاربي الإسلامي، واستطاعت بفضل تصورها المنهجي والاصطلاحي تسجيل إسهام لافت للنظر في التطور التاريخي للبلاغة العربية في محاورتها الموقف النقدي.

يحفل المنجز النقدي لدى نقاد المغرب الإسلامي بالعديد من الطروحات العارفة بشؤون النقد المتأخر عن زمانهم، بحجة أننا نلتمس أثرا لها في تفكيرهم؛ نذكر من ذلك مسألة التلقي التي اهتدى إليها هؤلاء تحت مسميات نقدية عدة؛ منها التأثير، واقتضاء الحال والمقام، وإذا كنا نقترح مقاربة معرفية لهذا الجهد فمحاولة منا التأصيل لمقولة التلقي في النقد المغاربي القديم، إظهارا لكفايته الفكرية في هذا المنحى.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، الموقف النقدي، التلقي، التأثير، الحال، المقام.

Abstract:

In the past, Moroccan critics were interested in critiquing the poetic achievement, due to what the era was known for as a source of this literary genre; If the traditional critical knowledge is known for its lack of independence in its epistemological presentation, it has been full of authorship on various issues; In order to adopt a way to clarify issues, to take care of the proper arrangement of the statements presented for the study, and to work on reviving them, several critical and philosophical blogs appeared in the Maghreb Islamic criticism, and thanks to its methodological and idiomatic conception, it was able to record a remarkable contribution to the historical development of Arabic rhetoric in its critical stance.

The critical achievement of the critics of the Islamic Maghreb is full of many propositions that are familiar with the issues of criticism later than their time, on the pretext that we seek an impact on their thinking; We mention from this the issue of receiving to which they were guided under several critical names; Including influence, and the necessities

* المؤلف المرسل

of the situation and the station, and if we propose a cognitive approach to this effort, we try to root the saying of reception in the old Maghreb criticism, to show its intellectual sufficiency in this direction.
Keywords: Arabic rhetoric, critical position, reception, influence, status, position

1. مقدمة:

ترتب على هذا الأداء الحواري تفاعل الناقد المغاربي قديما مع مقولة التلقي مرورا بعتبة الاهتمام بالسامع (المتلقي)؛ حيث نصادف العديد من المواقف النقدية التي تعكس مظاهر أكثر تعددا من التفكير النقدي في الكلام الدال على المعنى من مدخل حاجة السامع إليه من ناحيتي الفائدة والإمتاع، وبما أن تحصيل الفائدة من الكلام مرتبطة بتحقق المعنى فإن الحوار الحسن القائم بين المتكلم والسامع يتخذ أثره انطلاقا من هذا الارتباط الذي لا سبيل لانفراط حبات عقده.

إن المثير للمناقشة في هذا المنجز النقدي، ذلك البحث المستمر عن طروحات مقنعة للعديد من القضايا والإشكالات، التي راح يحملها في تفاصيله؛ تعنى أساسا بمراعاة مقامات الشعرية، وكذا مقتضيات أحوال السامعين، فهل استطاع هذا المنجز على كثرته تحقيق تراكم متميز في هذا الباب بإضافة لاحق إلى ما توصل إليه سابق؟، وهل ارتقى بذلك النص النقدي المغربي من المنجز الفردي إلى مستوى الظاهرة، وماذا عن مقترحاته بشأن محاولة التأصيل لنظرية في التلقي؟.

2. المقاربة المعرفية:

أظهر المنجز النقدي في المغرب الإسلامي عناية بمقولة التلقي كشفت عن وعي النقاد المبكر بهذا الطرح، وقد «كان اهتمامهم بموضوع الاستقبال مرتبطا في جملة أحكامهم بقضايا النص، ولهذا جاء مبثوثا في تضاعيف الأحكام، متعدد المفاهيم بتعدد الملكات، أو باختلاف العوامل المؤثرة في تاريخ الأدب وتقدير النقاد. ومع تعدد المفاهيم واختلاف الرؤى في استقبال النص كان البحث عن المتعة الفنية من أبرز منافذ التواصل مع الملتقي، ومن أهم قنوات البث المباشر لدى نقادنا مع اختلاف مستوياتهم وقدراتهم في استلهام مواطن الجمال في النص»[1].

ناقش النقاد المغاربة مقولة التلقي في مدرج حديثهم عن قضايا النص، خاصة قضية الجمالية، وإذا كانت رؤاهم قد تجاذبتها العديد من المفاهيم والتصورات إلا أنها تنهض جميعا على البعد التواصلي لفعلي الكلام والكتابة، وأن المتكلم أو المخاطب معني بهذا البعد في عملية الإبداع متخذا من أحوال السامع أو المتلقي مرجعا له في الأداء الفني، ومن مظاهر التفكير النقدي في مقولة التلقي لدى هؤلاء النقاد نذكر:

2-1. مقولة التلقي عند عبد الكريم النهشلي (ت. 405هـ)[2]:

تختلف المداخل التي طرق عبرها النقاد المغاربة مقولة التلقي؛ مع الاتفاق حول الأثر الذي يعتمل في النفس مترتبا عن استقبال المنجز الأدبي شعرا كان أو نثرا؛ حيث تحدث عبد الكريم النهشلي عن الشعر مشيرا إلى ذلك

فقال: «خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر، الذي ترتاح له القلوب وتجذب به النفوس، وتصغى له الأسماع، وتشحذ به الأذهان وتحفظ به الآثار، وتقيد به الأخبار»[3].

إن الشعر وما يتأتى له من قدرة جمالية من شأنها استمالة القلوب وإشعارها بقدر من الراحة، مما يجلب النفوس، ويشد الأسماع، ويحمل الأذهان على التأمل والتفكير يصب في معين التلقي؛ ذلك أن الشاعر قد أدرك بداية أن جودة شعره رهينة هذا الأثر، وبه تقاس، وأن الشعر وسامعه لا فكاك للوصل الصميم بينهما، الذي يفترض به أن يكون كذلك تحقيقا للشعرية بمختلف مراتبها.

وتتدخل مؤشرات شعرية ضمن هذا المنحى العام لدعم هذا الأثر خاصة ما تعلق منها بالموضوع؛ ذلك أن الشعر يضيف النهشلي قائلا: «به الذود عن الأعراض والتعبير به والتوبيخ والتحذير والتخويف وأنه يجمع الجمال والحسن، وفي الشعر التياط بالقلوب ومدخل لطيف إلى النفوس»[4].

إن تحقق للشعر هذا البعد لدى سامعيه رأيت النفوس قد أبدت فروض الولاء والطاعة لما تتلقاه، فيكون للشاعر توجيهها وجهة النصح والإرشاد، مرورا بعتبات تعبيرية عدة لا تخرج عن اثنين؛ هما الترغيب والترهيب وما ينفرع إليه كل مسلك منها من ضروب الإنشاء.

نوجز التفاتة النهشلي إلى مسألة التلقي بالنظر إلى ما قال في الإشارة إلى التلقي بمسميات عدة مما يتعلق به من قبيل: القلوب، والأسماع، والأذهان، والنفوس التي ترددت كثيرا لدى النقاد المغاربة قديما، لاسيما النفس «ويوحي هذا اللفظ بدلالات كثيرة ربما كانت سببا في الإلحاح عليه في مصنفاتهم إذ أن النفس تشير إلى الإنسان ومشاعره الداخلية وأعماقه، فكأن الخطاب الأدبي موجه إلى جوهره لا إلى السطح أو الظاهر .. ولكن اللفظ الذي له الذيوع والانتشار عند الجميع هو "السامع" بدء من الكتابات النقدية في القرن الثاني إلى القرون المتأخرة ... وبما أن الخطاب الأدبي عبارة عن تأثر وتأثير فإن هناك تسمية جديدة يمكن أن تطلق على المتلقي وهي (المتأثر)، كما فعل بعض النقاد ومنهم السجلماسي في منزعه البديع»[5].

إن هذه المسميات التي نستدل بها على فعل استقبال السامع للكلام نلفيها أقرب تمثيلا للتلقي في الأداء والممارسة؛ ذلك أن السمع، والذهن، والقلب، والنفس محطات استجابة تعمل عمل المصفاة التي يمر بها شعر الشاعر فتطمئن إليه وتستكين.

2-2. مقولة التلقي عند ابن رشيق القيرواني (ت.456هـ)[6]:

يحمل الأسلوب من روح صاحبه الذي يفترض فيه العلم بمراتب المقال تبعا لمقام الذي ترد فيه، وهي من أبرز القضايا التي أثيرت في التراث البلاغي؛ ذلك أن المقامات والسياقات عامة بينما الوقائع التعبيرية والكشوف الخطابية المتصلة بها فخاصة خصوصية الأسلوب الذي تحمل، ومناسبة المقال للمقام من المفاهيم التي خصها ابن رشيق بالحديث في باب آداب الشاعر تحت توصيف "لكل مقام مقال"؛ وذلك في كتابه العمدة.

وقد بيّن هذه المسألة بمقتضياتها من المناسبة والتوافق فقال: «فأول ما يحتاج إليه الشاعر – بعد الجد الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية – حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول؛ فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا»[7].

ولا تقف المناسبة عند حدود الغرض الشعري بل تتعداه إلى السامعين كل باسمه ووسمه، «وقد قيل: لكل مقام مقال وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته – من مزج، وغزل، ومكاتبة، ومجون، وخمرية، وما أشبه ذلك- ... وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع»[8].

إن مناسبة المقال للمقام من شأنها إحداث الأثر الوارف لدى السامع بعد أن هيأت له المهاد للانفعال، لذا لا يستهان بالسياق في تعزيز الأثر الشعري لدى المتلقي؛ ذلك أن «السياق يعطي الدلالة معان إضافية لا تدرك بعزله، كما أن الشاعر يعطي من نفسه، ومن مشاعره وأحاسيسه ما يمنح النص تميّزه»[9]، ومعرفة أحوال المخاطب ومقاصده مفاتيح لابد للمتكلم من امتلاكها حتى يتسنى له التحكم في توجيه إدراك سامعه الوجهة التي يريد، وهذا أعلى مراتب صناعة الشعر وأجلها.

وإذا كان الشاعر يحتفي بمقام المتلقي؛ فلأنه مدار شعريته وحجر الرحى في صنعته و«لم يأت اهتمام ابن رشيق القيرواني بالمتلقي/القارئ – باعتباره طرفا في العملية الإبداعية- من فراغ بل من فهمه للشعر الذي يعتبره صناعة لها آلياتها التي تستعصي على كل دخيل. بيد أنها سلسة في يد من أوتي موهبة، يثابر في صقلها والارتقاء بها إلى درجة التميّز، خاصة إذا ارتبطت بالمدح التكسبي الذي لا مجال فيه للتهاون، ولا مكان فيه إلا لمن يثبت نفسه ويكشف عن قدرته؛ لأن المتلقي في هذه الحال هو من علية القوم/متلقي خاص»[10].

يمكن القول بنموذجية هذا المتلقي الذي يملك فهما عارفا بصناعة الشعر وما تكتنزه من احترافية في النظم، لذا لا يمتلك ناصيتها إلا الخاصة من الناس؛ حيث تتكشف لهم خيوط نسجها من وراء حجب الإلهام بكل سلاسة ولين، في حين أنها مستعصية على غيرهم بما شاء الله من فروق في الخلق.

أورد ابن رشيق في بيان فضل المقامات على النتاجات الشعرية، فصلا لعبد الكريم بن إبراهيم في القول بما قد يصلح في وقت ما لا يصلح في آخر: «قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بل ما لا يستحسن عند أهل غيره، وبحد الشعراء الحُذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء، وحد الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره: كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم، ونوادر حكاياتهم، قال: والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدهر،

ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة»[11].

تأتي الأزمان بروح تختص بها؛ إذ تدفع بأهلها إلى استحداث ألفاظ تعبر بها عن حاجاتها المستجدة، ومعانيها المستحدثة، فلا يصلح قول لغير أهل زمانه، ويترك التقدير في هذا لأهل العلم بالشعر كل في زمانه، وإن كان هناك اتفاق حول دوام الأثر وهذا مطلوب في شعر الشاعر، فضلا عن مجانبة الدخيل المستكره والمولد المنتحل، ومقاربة المثل السائر وما جل ما اهتدت إلى القريحة العربية من بلاغة القول.

أما عن رأي ابن رشيق في هذا الطرح فقد كشف عنه بالقول: «وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل وإثباته ههنا داخلا في جملة المميزين، إن شاء الله؛ فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذي لفظه سائر في كل أرض، معروف بكل مكان، وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقا سفساقا، ولا باردا غثا، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حوشيا خشنا، ولا أعرابيا جافيا، ولكن حال بين حالين ..»[12].

استحسن الناقد من اللفظ ما يتخطى به الشاعر حدود الطائفة والبلد، وهو المقدم عنده كونه سائر في كل أرض، بينما يتأخر لديه ما دون ذلك من الألفاظ، غير أن التقدم باللفظ لا يحمل المتكلم على الاستعجال في الابتكار، بقدر ما يحثه على الاعتدال فيه؛ كونه ليس بالمطلب السهل المنال.

أما وقد تأتى للمتكلم ما أراد من عطاء لفظي أحرز بها قصب السبق في التداول فإن «الحكم بالجودة أو الرداءة عندئذ لن يراعى فيه إلا إيراد الكلام على ما يقتضيه داعيه والغرض منه ومقامه، وإذا نظرنا إلى زمن القائل فلكي نعرف مدى تكيفه معه ومراعاته له لا لنعرف موقعه منه»[13].

وقد ذهب ابن رشيق في بيان جودة الشعر مذهبا خرج به عن معيارية الوصف الذي لا يفقه من أمر الموصوف غير سطحه، مفيدا من النقاد العرب الذين سبقوه وهو ما عبّر عنه بالقول: «وسمعت بعض الحذاق يقول: ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عن المميز: كالفِرِنْدِ في السيف، والملاحة في الوجه، وهذا راجع إلى قول الجمحي، بل هو بعينه، وإنما فيه فضل الاختصار»[14].

يخرج الناقد الشعر في تحديد جودته من معيارية الوصف؛ كونها واقعة غير قابلة للقياس بالنظر إلى طبيعتها التي لا تقف على ثابت، وإن شئنا الكشف عنها فلن يكون هناك أجدى من وقعها في النفس المتلقية، ونقد استجابة المتلقي هو بتصور معرفي آخر نقد لجودة الشعر، ويعود ابن رشيق في هذا الرأي إلى الجمحي مع الاختصار فيه.

ويخوض ابن رشيق في مظاهر التأثير رابطا إياها بطبائع الشعراء في أشعارهم؛ ومن ذلك الإطالة والإيجاز؛ وهو ما عبّر عنه بالقول: «غير أن المطيل من الشعراء أهيب في النفوس من الموجز وإن أجاد، على أن للموجز من فضل الاختصار ما ينكره المطيل»[15].

وهذه الإطالة الباعثة على الهيبة في النفوس تبعد بما كان عن الإسهاب الممل، وفي هذه الحال يفترض بالشاعر المطيل التحكم في الموقف بأن يجعل النفوس على اتصال بنظمه أطول أقدر ممكن؛ ولا يكون له ذلك إلا بالاشتغال على مقادير الشعرية بكل اختلافها وتعددها حينها يكون قد فرض هيبته وتقدم عن الموجز وإن أجاد، وجودته لا تكون إلا بالتعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة؛ ذلك أن «من حد البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة»[16].

ولا ينكر ابن رشيق فضل الإيجاز إلا أنه يتأخر لديه بخلاف ما ذهب إليه أهل البلاغة ممن سبقوه؛ ف «أكثر ما عليه الناس في البلاغة أنها الاختصار، وتقريب المعاني بالألفاظ القصار، والاقتصار على الإشارة إلى معانيها، والدلالة بالقليل على الكثير، وقد سئل بعضهم عن ذلك فقال: لمحة دالة، وإلى هذا ذهب أكثرهم في الحذف والاختصار»[17].

أما بعضهم الآخر فالتمس البلاغة في الإيجاز والإطالة معا؛ فقد حكى المفضل الضبي (ت. 168هـ-784م) فقال: «قلت لأعرابي ما البلاغة؟، فقال: الإيجاز من غير عجز والإطناب في غير خطل»[18]؛ أي في غير اضطراب من شأنه إفساد الكلام والذهاب بوقعه.

والاكتفاء ببعض الكلام دون إرفاقه ببعض مما يدخل في باب المجاز؛ وهو في الشعر كثير، وحذف بعض الكلام وترك ما يدل عليه؛ «إنما كان هذا معدودا من أنواع البلاغة؛ لأن نفس السامع تتسع في الظن والحساب، وكل معلوم فهو هين؛ لكونه محصورا»[19].

عدّ ابن رشيق هذا الضرب من الكلام نوعا من البلاغة؛ لاتساع نفس السامع ظنا وحسابا؛ والمقصود بفعله هذا الوقوع على ما يسد به الفجوة المترتبة عن المحذوف من الكلام وقوعا جيدا يقترب به من قصد الشاعر الحقيقي، في حين لو عُرف ذلك بتصريح منه لبَطُل الظن والحسبان؛ لانحصار المعنى.

والوقوع على المغيّب حذفا ليس متاحا إلا للسامع للنموذجي الذي يحسن الظن وتقدير المسائل البلاغية، وفي «توجه الاهتمام إذن إلى المجهول الذي هو ليس هينا، هنا يلتقي ابن رشيق مع الآراء النقدية التي ترى أن فعل المتلقي قائم على الروية وإعمال النظر في استخراج المعنى الأدبي، والمتلقي الذي يستدل على المعنى المخفي بالمعنى الظاهر أو المحذوف بالمعنى الباقي هو متلق ذو صفات خاصة. وهذا ما يريده النقد العربي للمتلقي، كونه عنصرا فاعلا في توليد المعنى أو اختراعه»[20].

درج التراث النقدي العربي عموما، بما في ذلك ما جادت به قرائح النقاد المغاربة قديما من مقولات على العناية بالدور الريادي المنوط بالمتلقي في الوقوع على المعاني الغائبة التي يستدل عليها من القرائن التعبيرية الحاضرة، مفيدا من ثقافته أولا، وخبرات التلقي التي راكمها ثانيا.

ويعد من البلاغة أيضا أن يفطن المتكلم لحاجات السامع فيحدثه بما تميله، وبهذا يكون قد بلغ نفسه من أيسر المنافذ، وأدناها إليه؛ هذا ما أشار إليه ابن رشيق حين ذكر قول أحدهم في حد البلاغة: «إبلاغ المتكلم

حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة»[21]، وأضاف في السياق ذاته قول آخر: «البلاغة أن تُفهم المخاطب بقدر فهمه، من غير تعب عليك»[22].

يشترط في هذا الضرب من التلقي أن يعي المتكلم حال المخاطب من حيث ثقافته، فلا يحدثه إلا بما يفهم، فتتحقق له الفائدة من سماع الكلام، التي قد لا تقف عند حدود الاستيعاب بل يصدقها الفعل والسلوك أيضا، وبهذا يكون المتكلم قد جاوز الإمتاع إلى تصحيح مسار في حياة الناس.

2-3. مقولة التلقي عند السجلماسي (؟-؟)[23]:

ويعرض السجلماسي للسامع في معرض حديثه عن مراتب التأويل التي تختص بكلامه تبارك وتعالى ومن ذلك قوله بحذف الجواب في قوله عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [سورة الزمر، الآية: 73].

وقد أبان عن علة هذا الحذف فقال: «وإنما يحذف الجواب في مثل هذه الأدوات المقتضية الجواب لقصد المبالغة؛ لأن السامع يترك مع أقصى تخيله بتقديره أشياء لا يحيط بها الوصف، وذلك حيث يسوق السياق إلى معنى واحد يقع على أنحاء كثيرة، ووجوه متعددة وآخذة بالنوع، ولأخذ بعضها بدل بعض في زمن كأنها تقع فيه دفعة يحار الوهم ويعظم التخيل لها بذلك. ولو صُرّح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به المعين فلا يكون له ذلك الوقع وتقديره في الآية: "حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا"؛ أي وقد فتحت، والواو واو الحال»[24].

يعد هذا الحذف من بدائع الإضمار المقصود في كلام المولى عز وجل، ومن الأدوات التي تحث السامع على البحث في المحذوف وتقديمه جوابا للحذف؛ ويتدخل في تحديده بالتخيل، والعودة إلى السياق في تقديره، ولو تم التصريح بالجواب لكان الذهن قد وقف عنده، فلا يذهب السامع أبعد من ذلك في الأثر.

إنها دعوة للسامع والقارئ للتدبر في مقادير الغائب؛ لإشراكه في ففعل التلقي إشراكا فاعلا يستحضر من خلاله مكامن قدرته التخييلية، «ولو شاء المرء أن يرى الجنة من خلال الأوصاف والنعوت التي خص بها القرآن هذا الموئل المقدس لما خرج بتصور واحد معين، بل بتصورات عديدة تحاول كلها الإحاطة بهذا الوعد الإلهي، فالمتلقي في القرآن هو ذلك الذي يعمل الفكر لكي يتحصل المعنى تحصيلا، ويستخدم طاقة الخيال لرؤية ما يوحي به النص. فالتوجيه نحو المتلقي إذن وجه من وجوه الإعجاز في القرآن»[25].

والتوجيه نحو السامع وجه من وجوه البلاغة الشعرية، التي تمنحه فرصا لتحصيل المعنى وتقدير احتمالاته بما يتوافق ومقامات القول؛ دلالة على أن التفكير النقدي القديم لدى المغاربة قد أحتفى بالمتلقي ليس لأن النص موجها إليه أولا فحسب بل وأيضا لأنه على قدر من الذائقة الفنية والاطلاع الجمالي مكناه من أخذ موقعه في توجيه النص الشعري الوجهة التي يقتضيها التخريج الباني بما اهتدى إليه فكره من فهم.

ويقدم الناقد طرحه النقدي بخوص التأثير الحاصل لدى المتلقي عبر ثنائية ضدية قوامها «مقولة أن ينفعل ضد مقولة أن يفعل؛ فهو الهيئة الحاصلة للمتأثر عن غيره بسبب التأثير أولا؛ كالهيئة الحاصلة للمنقطع ما دام منقطعا»[26]، وتختلف مؤشرات الانفعال انتقالا من متأثر لآخر حسب الطبائع والميول والأذواق.

ومن المواقف البلاغية التي استوقفت الناقد الالتفات؛ «وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع، وتجديدا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه»[27]، وقد نال الالتفات الحظوة لدى المتلقى نظرا لما فيه من مجانبة للأسلوب الرتيب.

وفي بيان أثره ذهب القرطاجني إلى أن «فائدة هذا الأسلوب من النظم والفن من البلاغة استقرار السامع والأخذ بوجهه، وحملُ النفس بتنويع الأسلوب وطراءة الافتنان على الإصغاء للقول والارتباط بمفهومه ... ولو كان أسلوب القول على نهج واحد لم يكن له هذا الوقع وهذا التأثير»[28].

ركز الناقد على استجابة السامع للمواقف البلاغية التي يحفل بها المتكلم ويعنى بها كثيرا؛ كونه يتخذها وسيطا ممتازا لحمل السامع على التأثر النوعي بما يسمع، ويشير السجلماسي بهذا الطرح إلى مفهوم التعدد في النتاج الأسلوبي على مستوى النص الواحد وأثره لدى المتلقي؛ ذلك أن اتخاذ سبيل واحد في الكلام وما يفرضه من رتابة يحول دون الأثر المطلوب، ولهذا فإن المغايرة والاختلاف والتنويع وما تحدثه من أثر تعد من أهم الوسائط الجمالية في فعل التلقي.

3. خاتمة:

نخلص أخيرا إلى أن النقد الأدبي في بلاد المغرب الإسلامي قد حفل بتراكم نوعي من المقاربة في التنظير لمقولة التلقي؛ وبالرغم من الخوض في الحديث عن هذه القضية النقدية بمختلف امتداداتها عبر عديد المصنفات ذات الطابع الموسوعي في طرحها إلا أننا نلمس قدرا من التخصص في التناول والمعالجة ينم عن وعي بأهمية نقد استجابة المتلقي في اتصالها بمسائل النص، كما أن العديد من الطروحات نجد لها مقابلا في نقدنا الحديث دلالة على وجود نوع من الأسبقية لدى نقادنا المغاربة، وأن ما قدموه من إسهامات جليلة في هذا الباب يستحق مزيدا من المكاشفة.

4. الإحالات:

[1]- زين العابدين حمبلي، إرهاصات نظريات جمالية القراءة في التراث النقدي العربي، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، ع13، أبريل 2017، ص194-195.

[2]- عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي المغربي، توفي بالقيروان أو المهدية سنة خمس وأربعمائة، نشأ بالمحمدية من أرض الزاب، شاعر مقدم، وعارف باغة العرب وأيامها، وأشعارها، ومآثرها. ينظر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، ج19، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-2000م، ص51.

[3]- عبد الكريم النهشلي القيرواني، الممتع في صنعة الشعر، تح. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ت.ط)، ص5.

[4]- نفسه، ص5.

[5]- محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص32- 33.

[6]- أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي: من بلغاء القيروان وأبنائها ولد بالمسيلة في عام 390هـ الموافق لعام 999م، وتوفي في عام 456هـ-1064م، أخذ الأدب عن أبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني النحوي، وأبي محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، له كتاب العمدة في محاسن الشعر. ينظر: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، 1401هـ-1981م، ص14/10/3.

[7]- نفسه، ص199.

[8]- نفسه، ص199.

[9]- رشيدة كلاع، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص من خلال كتابي العمدة ومنهاج البلغاء - بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم، إشراف الاستاذ الدكتور العلمي لراوي، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة1، 2013-2014، ص202.

[10]- نفسه، ص201.

[11]- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص93.

[12]- نفسه، ص93.

[13]- عبده عبد العزيز قلقيله، النقد الأدبي في المغرب العربي، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1988، ص86.

[14]- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص119.

[15]- نفسه، ص187-188.

[16]- أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية- الرسالة السادسة عشرة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم/مجموعة مختارة من عيون الأدب العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ-1981م، ص218.

[17]- نفسه، ص214.

[18]- نفسه، ص218.

[19]- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص251.

[20]- محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، ص21.

[21]- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص244.

[22]- نفسه، ص244.

[23]- أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري السجلماسي، لا يعرف تاريخ لمولده أو وفاته غير أنه كان حيا سنة 704هـ تقديرا، وقد اشتهر قبل تأليفه المنزع بالرغم من هذا الغياب التاريخي لنسبه وكتابه؛ دلالة على مكانة الرجل العلمية والاجتماعية، ينظر: أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط1، 1401هـ-1980م، ص47 48

[24]- نفسه، ص190.

[25]- محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، ص16.

[26]- أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص162.

[27]- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ج3، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، (د.ت.ط)، ص314.

[28]- أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص443.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1. حمبلي (زين العابدين)، إرهاصات نظريات جمالية القراءة في التراث النقدي العربي، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، ع13، أبريل 2017.

2. ابن رشيق القيرواني الأزدي (أبو علي الحسن)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، 1401هـ-1981م.

3. الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ج3، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، (د.ت.ط).

4. السجلماسي (أبو محمد القاسم)، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط1، 1401هـ-1980م.

5. الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، كتاب الوافي بالوفيات، ج19، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-2000م.

6. العسكري (أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد)، كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية- الرسالة السادسة عشرة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم/مجموعة مختارة من عيون الأدب العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ-1981م.

7. قلقيله (عبده عبد العزيز)، النقد الأدبي في المغرب العربي، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1988.

8. كلاع (رشيدة)، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص من خلال كتابي العمدة ومنهاج البلغاء - بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم، إشراف الاستاذ الدكتور العلمي لراوي، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة 1، 2013-2014.

9. المبارك (محمد)، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

10. النهشلي القيرواني (عبد الكريم)، الممتع في صنعة الشعر، تح. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ت.ط).